

ما رأيت وما سمعت (*) (١)

تأليف خير الدين الزركلي

هو كتاب أدب ، إذا أدركت وجهك عن السياسة، وهو كتاب سياسة، إذا قرأت بعض الموضوعات فيه، وهو كتاب تاريخ وجغرافيا، إذا نظرت في كثير من الموضوعات فيه، وهو كتاب رحلات، إذا أردت به الإطار العام ، وهو بعد ذلك أول كتاب يطبع للزركلي .

وهذا الكتاب هو خلاصة ستة أشهر أمضاها الزركلي في الحجاز هارباً من دمشق إلى حيفا فالقاهرة بعد أن حكم عليه الفرنسيون بالإعدام ؛ لدعوته إلى مقاومتهم ، ووصف لرحلته إلى مكة والطائف . وقد جعل فاتحته وصفاً شاملاً لما أصاب سوريا عقب معركة ميسلون، ودخول الفرنسيين دمشق. وتمثل ببיתי شعر، هما من مختار شعره :

(١) أصبح هذا الكتاب مفقوداً ، وقد تفضلت عليّ السيدة حياة خير الدين الزركلي بتصويره، فلها مني الشكر الجزيل والثناء الحميد .

(*) عنيت بنشره المطبعة العربية ومكتبتها - القاهرة ، ١٣٤٢ / ١٩٢٣ م ، ١٩١ ص.

عرض أحمد

العلامة*

* أنهى الدراسة
الثانوية في
الطبعة بالأردن
عام ١٤٠٤ هـ.
له عدة أعمال
مطبوعة .
- متفرغ للبحث
والتأليف.

أنا لا أشكو ونى في أمتي ويقومي كان إدلال الضخور
إنما توشك أن تبكيني غفلة القادة منا والصدور

ولست أعجب من أن يؤلف الزركلي هذا الكتاب في الفترة الوجيزة التي أمضاها في الحجاز ، فهو كاتب قدير . ولكنني أعجب كيف استطاع أن يمسك القلم وأن يقبل على القرطاس ، وقد خرج من بلاده موجساً في نفسه خيفة بعد الحكم عليه بالإعدام ، وقدمه إلى بلاد لم يعرفها من قبل .

وقد سجل الزركلي في هذا الكتاب ما وقع عليه بصره ، وما سمعته أذناه ، بقلمه البليغ الذي لا ينسى وقعه ، ولا يمحي أثره ، وقد أشرك القارئ معه الإحساس بالمتعة ، فقال : « وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت ، نقل المحدث لا المؤرخ ، والمصور لا الكاتب ، متحرياً الحقيقة كما هي عارية مجردة . ولو استطعت لأخذت بيد القارئ أريه ما وقعت عليه عيناى ، وأسمعه ما وعته أذناى . على أن الخبر قد يغني عن الاختبار ، وفي الرواية ما قد يغني عن المشاهدة»^(١) .

والرحلة لم تنس الزركلي وطنه الذي خرج منه خائفاً يترقب ، فقال في لذة رحلته والشوق إلى وطنه : « غير أن اللذة في ما كان يلوح لنا من أثر أو منظر ، لم تبرح تشجعنا على المضي في التصعيد والتطويق والتشويق والتغريب ، وناهيك بما هنالك من صفاء في الأرض والسماء ، وسكون في الطبيعة والفضاء ، لولا ما كان ينتاب النفس - وللنفس حنين - من نزوع وتشوق ، وتطلع وتشوف ، إلى ديار صبابتي ورباع أنسي ، ومهوى هواي ومنبت غرسى ، ديار الشام المنكوبة ، وبلاد الآمال والآلام ، سلام عليها وألف سلام»^(٢) .

(١) ص ١١١ .

(٢) ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ويعد هذا الكتاب مرآة في ذلك الزمان لمكة والطائف ، ولعله أول كتاب في أوائل القرن العشرين يؤرخ للطائف^(١) في ماضيها وحاضرها ويتحدث عن جغرافيتها ، فكان معجباً بها ، يثني عليها ويطريها ، ويعاشر فضلاءها ، ويستمتع إلى بدوها . ويسجل شعرهم ، ويستوضح معناه ويحلّله ، ويورد أنواعاً مختلفة من أغراضه ، ومن أشعار كبار قائله ، وينتقل إلى ذكر العادات والتقاليد ويذكر ما فيها من بعض المفارقات ، ويوازن ويرجح . كل أولئك بأوجز عبارة وأصفى بيان .

والمدّش في دقة ما ذكر واتساعه أنه لم يقم في الطائف إلا عشرين يوماً . فاسترسل في تسمية الطائف بهذا الاسم ، وما رافق ذلك من خيال^(٢) ، وعرض لتسمية الطائف ، فذكر أنه لم يجد ما يعول عليه في تحقيق الباعث على تسمية هذه الديار بالطائف ، ولكنه رأى أقربها إلى الصحة ما ذكره القلقشندي وياقوت الحموي من أن اسمها القديم (وج) ثم أقامت بها جموع ثقيف ، وبنوا عليها حائطاً مطيفاً بها كالذي يسمونه الآن بالسور ، فسميت الطائف من إطفاء الحائط بها^(٣) .

ونبه على أن اسم الطائف يطلق على البلدة والمنطقة الكاملة . كما يطلق اسم الشام على دمشق وسائر بلاد الشام ، أو بكلمة مصر على القاهرة وسائر القطر المصري^(٤) .

(١) الطائف : تذكر إذا أُريد بها الموقع ، وهذا ما جرى عليه الزركلي . وتؤنث إذا أُريد بها المدينة ، وهذا ما جريت عليه هنا ، لا اعتياد الناس ذلك .

(٢) ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) ص ٤٨ .

(٤) ص ٧٣ .

وتحدث بأهمية الطائف في ثلاثة أمور .

الأول : موقعها العسكري والسياسي ، إذ تعدّ أمنع ثغور الحجاز البرية ، وهي مجتمع القبائل ومحتشد العشائر ، وهي مصيف أمراء مكة وأشرفها .

والثاني : مكانتها الاقتصادية : فهي أحد أبواب الحجاز التجارية الكبيرة ، وأرضها أغنى أراضي الحجاز بعد وادي فاطمة .

الثالث : شأنها التاريخي : فهي أقدم البلاد العامرة في الحجاز^(١) .

ثم تكلم عن فتح الطائف وخروج الترك منها^(٢) ، وأتى على آثار الطائف، فبين أنها قليلة لكثرة ما طرأ عليها من نوازل الحروب والسيول ، وذكر ما رآه منها، تاركاً الزيادة عليه لمن يتوسع في بحثه عنها، ويكون له من الوقت والوسائط والمعرفة بأنواع الخطوط القديمة ما يكفي لتتبع كل أثر قديم فيها، أما ما شخص من آثارها، فقد حصره في ثلاثة مواضع: المساجد، والمقابر ، والجبال . وقد أجمل الحديث فيها^(٣) . وتابع حديثه بذكر أعلام الطائف ، فأثبت من استشهد فيها من الصحابة رضوان الله عليهم في غزوة النبي ﷺ لثقيف عام ثمانية للهجرة^(٤) ، وتطرق لبعض الأعلام المقبورين بالطائف ، مكتفياً بستة منهم طلباً للإيجاز^(٥) ، وأفاض بذكر رجال ثقيف ، فعدّ منهم ٣٧ رجلاً وخمس نساء^(٦) .

(١) ص ٤٥ - ٤٨ .

(٢) ص ٤٩ - ٥١ .

(٣) ص ٥٤ - ٦٣ .

(٤) ص ٦٣ - ٦٤ .

(٥) ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦) ص ٦٦ - ٧٢ .

ثم تحدث عن سور الطائف ، وأبوابها وحاراتها ومنازلها ومدارسها وأدبائها المعاصرين^(١) ، وأبدى إعجابه ببعض ما رآه ، كإعجابه ببيت كعب بن سعد الذي أثبت على صدر دائرة البرق والبريد والهاتف :

ولست بمبمدٍ للرجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤؤل

فقال : «فأعجبني حسن اختيار هذا البيت لذلك المكان»^(٢) .

وأثبت موجزاً لزراعة الطائف ومياهها ومعادنها والاستفادة منها^(٣) وهذا استقصاء ودقة من الزركلي .

ثم شرع بذكر قرى الطائف وجبالها وأوديتها وآبارها وبساتينها وحصونها وعيونها ، مرتبة على حروف المعجم^(٤) ، وأوجز بذكر قبائل الطائف^(٥) .

وقد عانى الزركلي في كتابته عن الطائف ما عاناه متأخرو الكتابين عن الطائف بعد أن اندرس جلّ ما فيها من آثار ومعالم ، فظفر باليسير من الكثير ، وبالنزر من الوفير ، كما قال^(٦) .

وبعد أن أمضى الزركلي عشرين يوماً في الطائف ، عاد إلى مكة المكرمة ، ليقضي في ضيافة الملك الحسين بن علي أكثر من ثلاثة أشهر ، وسجل ما يخص أهم فترة من فترات حكم الهاشميين في الحجاز على قصرها ، فوصف قصري

(١) ص ٧٣ - ٧٨ .

(٢) ص ٧٧ .

(٣) ص ٨٠ - ٨٤ .

(٤) ص ٨٥ - ١٠٠ .

(٥) ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦) ص ٤٨ .

الملك . ثم ذكر نسبه وتاريخ حياته . وإمارته وسيرته وأخلاقه وعاداته وأولاده ، وأتى على ثورته على الترك . وعرض بشيء من التفصيل ، لقوتيَّ الملك (القوة النظامية) و(القوة البدوية) وأُتيح للزركلي أن يتعرف إلى حياته الخاصة ، وأسلوبه في الكتابة ، وشعره وقوته الجسمية . إذ كان الزركلي يراه أكثر من ساعتين في كل ليلة ، يسمع حديثه مع المستمعين ، ويكلمه مع المتكلمين ، فعرفه في سروره، وعرفه أيضاً في كدره وغضبه ، واجتمع للزركلي طائفة كبيرة مما يحرص على العلم به الكثيرون من سيرة الملك وأخباره ، وعاداته وأطواره^(١) .

ثم خصص خمسين صفحة للحديث عن جولته في البادية ، وانطباعاته عن أهلها، ويذكر أن من يعاشر البدو ولو قليلاً، يعثر على تقاليد وخواص لا يتمالك من أن يستغريها أو يستطرفها ، ويقول عن البداية : «... البداية هم البداية في كل عصر وجيل . يتطور المجتمع ، وتتقلب الدول وتكثر المخترعات ، ويتقدم الإنسان ، وهم أولئك الحفاة الرعاة الشُعْتُ الغُبَر ، تغمزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات ، وتأبى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا القهقري . فإذا سجاياهم سجاياهم ، وأخلاقهم أخلاقهم، كأنما جبلوا من طينة اسمها «سنة الله» لا تحول لها ولا تبديل»^(٢) .

وقد قيّد الزركلي أشياء مما رأى من البدو ، وما سمع عن البادية . إن لم يكن للتاريخ والتدوين فللفكاهة والمسامرة ، ولم يرَ فائدة في التبويب والتنسيق ، فأطلق الحديث مرسلاً، وميّز كل خبر بعنوان يدل عليه، فتحدث عن الفراسة وقص الأثر، والختان في هذيل ، ومواكب أهل البادية ، وركوب الرماحة ، وصبرهم على الأذى ،

(١) ص ١٠٩ - ١٣٦ .

(٢) ص ١٣٧ .

ووضعهم الأسماء لكل ما يروونه ارتجالاً ، والثلاث البيض المقدسة عندهم ، يستييحون دم من يمسه أو ينكص بها ، وهي :

الضيف السارح : الضيف الذي نزل على أحدهم حضرياً كان أو بدوياً ، وأكل عنده وسرح ؛ فإن قتله أحد في طريقه وجب على مضيفه أن يأخذ بثأره، فيقتل قاتله ، أو يقتل أحد أقرباء القاتل غدرًا أو مقابلة ، أو على أي شكل كان ، ولا يؤاخذ مؤاخذ .

والطنب السابح : يعنون به طنب الخيمة المحدود، وهو كناية عن الجار الملازم لجاره ملازمة الطنب (وهو حمل الخباء) للخيمة. يعنون بذلك وجوب المحافظة على الجار والدفاع عنه . والأخذ بثأره إن قتل ، ولا يؤاخذ الجار إذا قتل قاتل جاره ولا دية عليه .

وخوي الجنب : الرفيق ، وعندهم أن من سار معه البدوي سبع خطوات أصبح (خويّه) ووجب عليه أن يقاتل معه ويحميه ، ولو كان قاتل أخ له^(١) .

وتحدث عن تحيتهم والقضاء عندهم ، ومحاربتهم عراة ، وبسط القول في شجعانهم وذكر أشهرهم ، وغير ذلك من شوارد أخبارهم وطرائفهم^(٢) .

ثم خرج من هذا للحديث عن أدب البداية مبيناً أن الشعر وحده هو المظهر البارز من مظاهر الأدب ، فإذا بحثنا في آدابهم فإنما نريد الشعر المألوف عندهم اليوم ، وما يتعلق به من معرفة أوزانه وتفسير كلماته وطرق روايته وأخبار قائله ؛ موضحاً أن الشعر البدوي يختلف عن شعر عرب الجاهلية وصدر الإسلام ، بفقده الإعراب والاحتفاظ بفصيح البيان ، أما الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم

(١) ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) ص ١٤٧ - ١٦١ .

عنه اللسان، فإنه لم يزل مما تحافظ عليه البادية، وتتفرد بالإبداع فيه عن الحواضر، فالشاعرية الفطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم^(١) . ويقابل شعر البادية بشعر الجاهلية بقوله : «ولئن عدّ من أعظم خصائص الشعر في الجاهلية تأثيره في النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد ، وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لا غير»^(٢) .

ويفرّق بين الشاعر البدوي والحضري : إن الأول أقوى على الارتجال ، بل أكثر شعره ينشده غير متكلف فيه ولا متصنع ، خلافاً للحضري ، فإنه يصنعه صنعاً ، فينمق ألفاظه ، ويهذب أبياته ولا يقوى على ارتجاله في الغالب .

وبيّن أن شعراء البادية يقسمون الشعر إلى نوعين : الأول ، الصحيح الأوزان واللغة ، ويسمونه «القريض» والثاني : الشعر البدوي المختلف في لغته وأوزانه عن الشعر الصحيح أو القريض ويسمونه «الحميني» وهو اسم عام لكل ما ينظمه البداة نظماً مرسلأ لا إعراب فيه ولا صناعة ويقول : «ولم أعلم اشتقاق هذه اللفظة ولا أصلها»^(٣) . ثم يورد نماذج من الشعر البدوي بقسميه : القريض والحميني .

وينتقل للقول في الرواية وطرائق النقل، فيذكر أن شعر البادية ينتشر بالواسطة التي كان يذاع بها قبل ظهور الإسلام ، وهي الرواية والحفظ في الصدور لا في السطور، ويذكر أن المشهورين بالرواية لا يحصون كثرة. ولا فائدة من تتبع أسمائهم^(٤).

(١) ص ١٦٢ .

(٢) ص ١٦٣ .

(٣) ص ١٦٥ .

(٤) ص ١٦٩ - ١٧٠ .

ثم استوعب الحديث في أوزان الحميني . وخلص إلى أن قائله يشبهون شعراء العرب قبل وضع العروض بإخراج القصيدة متساوية مع المطع . وإن وزنوا الشعر فميزانهم المقاطع (لا لا لا) وتسكين المتحرك . ومد أحد المتحرّكين كثير في شعرهم^(١) .

وانتقل بعد ذلك للتمييز بين شعر الحضر والبدو ، فذكر أن في حميني الحضري (المجاور للبادية) صفة ظاهرة لا تبدو في حميني البدوي . كما أن الشاعر البدوي أجراً على التصرف بلغته من الشاعر الحضري الذي يتكلّفها تكلفاً ، ويقلّد أهلها تقليداً ، وإن اختلط بهم كثيراً وعاشرهم طويلاً ، وقال : «وقد استطاع التمييز بين النظمين بملاحظة يسيرة هي أن شعر ابن الحواضر يبدو قريباً من لغة الحواضر ، فلا يعسر على الأديب الحجازي مثلاً أن يفهم جلّ ما يقول الشاعر الحجازي من النوع الحميني . أما شعر ابن البوادي ففيه وعورة على الحضري لا يكاد يفهمه إلا بعد السؤال وإطالة الإمعان»^(٢) وأثبت بعض شعر البدو .

ثم بيّن أن لكل بادية من بوادي الحجاز واليمن والعراق والشام أسلوباً خاصاً في شعرها . وكذا اللغة والبيان ، وعرّج على عناية أهل البادية بتداول الحميني وحفظهم له^(٣) . وختم حديثه عن أدب البادية بذكر أشهر شعراء بادية الحجاز ، مستشهداً ببعض شعرهم ، ممن علت شهرتهم ، وعرف شيئاً من آثارهم أو قليلاً من أخبارهم . أو اجتمع بهم^(٤) . وختم الكتاب بوداعه الملك الحسين بن علي والعودة إلى القاهرة^(٥) .

(١) ص ١٧١ - ١٧٣ .

(٢) ص ١٧٣ .

(٣) ص ١٧٨ - ١٨٠ .

(٤) ص ١٨١ - ١٨٦ .

(٥) ص ١٨٦ - ١٩١ .

هذا، ويصف الزركلي الأماكن التي رآها ، كوصفه مخلوان الملك الحسين . حيث كان يخلو الملك بنفسه وزواره : «المخلوان غرفة صغيرة ، في جانبها الأيسر هاتف (تلفون) وفي وسطها بضعة كراسي خيزران ، ينحرف داخلها إلى يساره ، فيرى أمامه دكة مستطيلة ، في صدرها نافذة كبيرة تطل على الشارع ، وعلى تلك الدكة يجلس جلالة الملك وبين يديه منضدة صغيرة عليها دواة بلورية ، وقلم من نوع القصب المعروف في بعض سورية باسم (الغزّار)»^(١) .

ويصف بناء أهل الحجاز ، خصوصاً أهل مكة ، فيقول : «وجدار غرفة النوم مشرف على الشارع لا بناء فيه ، وإنما هو نافذة واحدة كبيرة ذات تقاطيع خشبية ، لم أرَ من نوعها في غير الحجاز . وأهل مكة لا يكثرّون من البلور في نوافذهم ، بل لا يكادون يعرفونه لاستمرار الحر عندهم صيفاً وشتاءً . وكل جدران الغرف المطلّة على الشوارع نوافذ من هذا الطراز»^(٢) .

ويصف غار حراء بقوله : «وهو لا يزيد على مترين طولاً، ومتر واحد عرضاً»^(٣) . وعندما يذكر أسماء الأشياء في الحجاز بمسميات أهلها ، يشير إلى ما يقابلها من تسميات غيرهم ، مع تبيان الفصيح منها . فيذكر أن البرقية (التلغراف) ، سماها أهل الحجاز (السلك) على اسم السلك الذي يحملها . فهم يقولون : «جاءني اليوم سلك من فلان» وهو كقول العرب الأقدمين «جرى النهر» يريدون ماء النهر . والآية الكريمة «واسأل القرية» أي أهل القرية . فيقال في «جاء في السلك» أي خبر

(١) ص ٢٣ .

(٢) ص ٢٤ .

(٣) ص ٢٧ .

السلك ، ويقول : «أرى هذه التسمية أقرب إلى الأذهان من كلمة «البرقية» الشائعة بين أدبائنا منذ سنين كثيرة ، ولم تدخل حتى الآن في أسماع العامة التي ألفت لفظ التلغراف فلا تعرف غيره»^(١) .

ويقول في (الشاهي) : «أهل الحجاز جميعاً يقولون شاهي كأنهم ينسبونه إلى الشاه ، وأرى هذه التسمية أقرب إلى الصحة من كلمة الشاي التي لا معنى لها»^(٢) .

ويذكر التحريف أو التغيير الذي طرأ على اسم الموضع ، كذكره الهدة ، وأنه أصبح (الهدى)^(٣) ، وجبل البازمين الذي كان يعرف قديماً باسم الأصبحرين^(٤) . ويكثر الزركلي من الاستشهاد بالشعر ، فإذا رأى منظراً طريفاً ، أو أحس بجو لطيف تمثل بالشعر ، وإذا تذكر شاعراً تمثل بشعره ، وإذا ذكر مكاناً وللشعراء فيه شعر أنشده ، وإذا لقي شاعراً أورد شيئاً من شعره^(٥) .

الخاتمة :

وبعد ، فإذا كان الاختصار والتعريف لا يغني عن الأصل ، هذا إذا لم يشوّه في بعض الأحيان ، فحسبي أنني لا أرجو من هذا المقال الموجز أكثر من تشجيع القارئ على معرفة ما في الكتاب ، وحث الناشر على إعادة طبعه ، فلعلهما يجدان فيه أكثر مما وجدت ، وخيراً مما وجدت .

(١) ص ١٤٣ .

(٢) ص ١٢٩ .

(٣) ص ٤٠ - ٤١ .

(٤) ص ٨٧ .

(٥) انظر على سبيل المثال ص ١٢ ، ٢٩ ، ٣٤ - ٣٥ ، ٤٤ - ٤٥ ، ٧١ ، ٧٨ .